الفصل الأول

٢٠ طريق بوكسيرهات، شيتاجونج

تعد شيتاجونج أكبر موانئ بنجلاديش، وهى مدينة تجارية تضم ثلاثة ملايين نسمة. ولقد نشأت فى شارع بوكسيرهات فى قلب المنطقة التجارية لمقاطعة شيتاجونج، وهو شارع من اتجاه واحد يتسع لمرور شاحنة واحدة فقط، ويصل ميناء نهر شكتاى بقلب السوق.

والمكان الذى نقطنه ـ أنا وأسرتى ـ من شارع بوكسيرهات يعرف بـ «سونابوتى»، وهو مكان مشهور ببيع المجوهرات. يأخذ منزلنا رقم ٢٠ من هذا الشارع، وهو منزل مكون من طابقين، يحتل الطابق السفلى فيه ورشة والدى لتصنيع الذهب.

عندما كنت طفلاً، كان عالمى مليئًا بالصخب وبرائحة الجازولين المنبعثة من الشارع الذى طالما ازدحم بالشاحنات والعربات، وطالما استمعت إلى المشاحنات والصراخ بين سائقى العربات، وكذا أصوات آلات التنبيه المستمرة؛ ولذلك فقد كان جو هذا الشارع أشبه بجو دائم للاحتفالات. وفى منتصف الليل تخمد أصوات الشاحنات المارة، كما تخمد أصوات الباعة والمتسولين، وتختفى أصوات الطرق والحشو والتلميع فى ورشة والدى.

أما الطابق العلوى للمنزل، فيتكون من مطبخ وأربع غرف؛ غرفة لوالدتى وغرفة للاستماع إلى المذياع وغرفة أخرى كبيرة، وأخيراً غرفة للطعام التى يتم فرشها بسجادة

obeikan.com

صغيرة ثلاث مرات يوميّا لتناول وجباتنا العائلية. وكان للمنزل فوق سطحه ملعب نأوى إليه عندما يصيبنا الملل فنقوم بمتابعة الزبائن بالأسفل، أو بمراقبة الحرفيين وهم يصنعون الذهب فى الحجرة الخلفية ، أو قد نكتفى بمجرد مشاهدة ما يحدث فى الشارع الذى لا يتغير أبدًا.

وقد كان هذا المكان ـ ٢٠ شارع بوكسيرهات ـ هو المكان الثانى لعمل والدى فى شيتاجونج، فقد هجر مكانه الأول عندما تم تحطيمه بواسطة قنبلة يابانية. ففى عام ١٩٤٣م قام اليابانيون بغزو بورما وتهديد الهند بأكملها ـ وهى دول مجاورة لبنجلاديش. أما بالنسبة لـ شيتاجونج فلم تكن الضربات الجوية فيها بشكل مكثف؛ فبدلاً من القنابل قامت الطائرات اليابانية بإسقاط وريقات كنا نستمتع بمشاهدتها من فوق أسطح منازلنا، فقد كانت تشبه الفراشات وهى تتساقط باتجاه المدينة. ولكن عندما تحطم جدار المنزل، قام والدى بترحيلنا إلى مسقط رأسه ـ وهى قرية آمنة تدعى باثوا ـ وهى القرية التى ولدت فيها فى الوقت الذى شهد بدايات الحرب.

وتبعد قرية باثوا أكثر من سبعة أميال من شيتاجونج، وقد كان جدى يمتلك أرضًا زراعية فى هذه القرية، وكانت الزراعة تمثل مصدر الدخل الرئيس له، ولكنه اتجه فيما بعد إلى الاتجار فى المجوهرات، وشاركه فى ذلك ابنه الأكبر «دولا ميا» وكذا والدى. وسرعان ما أصبحوا فى مقدمة صانعى وبائعى المجوهرات المحليين للزبائن المسلمين.

وكان والدى لين القلب؛ فنادرًا ما قام بعقابنا، ولكنه كان حازمًا فيما يتعلق بأهمية التعليم بالنسبة لنا. وكان يمتلك ثلاثة خزانات حديدية كل منها بارتفاع ثلاثة أقدام ، وقد صممت هذه الخزانات بداخل الحائط فى نهاية المحل. وعندما يفتح المحل أبوابه للعمل، كان والدى يترك تلك الخزانات مفتوحة، فدواخلها المغطاة بمرايا تخدع الناظر إليها فلا يدرك حقيقة كونها خزانات، وإنما تتراءى له كجزء من ديكور المحل. وعند موعد الإقفال ـ قبل الصلاة الخامسة فى اليوم ـ يقوم والدى بإغلاق أدراج الخزانات الثلاث بإحكام بست أقفال لكل خزانة؛ ما زلت أتذكر أصواتها حتى الآن، فهذه الأصوات كانت بمثابة تنبيه لى ولأخى « سلام» بترك ما نفعله والعودة إلى استذكارنا من جديد.

وكان والدى يسعد طالما كنا جالسين وممسكين بكتبنا فيقول: «أحسنتم يا أولادى ـ أنتم أولاد رائعون»، ثم يتخذ طريقه إلى المسجد للصلاة. وكان والدى مثالاً للمسلم الورع طوال حياته؛ فقد حج ثلاث مرات إلى مكة، وكان دائمًا يرتدى زيًا أبيض وخفًا أبيض وكذلك بنطالاً وسترة وطاقية بيضاء. وكانت نظارته المربعة المصنوعة من صدف السلحفاة ولحيته الرمادية اللون توحيان بفطنته وثقافته، وإن لم يكن كثير القراءة. ونتيجة لكبر حجم عائلته وكبر حجم أعماله، فلم يكن لديه الوقت الكافى لمتابعتنا فى دراستنا، فكان وقته مقسمًا بين عمله وصلواته وواجباته نحو عائلته.

أما والدتى «صوفيا خاتون» فكانت ـ على النقيض من والدى ـ امرأة قوية وحازمة؛ فهى بمثابة المنظم للأسرة، وكانت بمجرد أن تقوم بالعض على شفتها السفلى نعرف على الفور أن أية محاولة لتغيير رأيها لا جدوى منها. كانت ترغب فى أن تجعلنا كلنا ـ دون استثناء ـ أناسًا منظمين على شاكلتها. وقد كانت لشخصيتها بالتأكيد أكبر الأثر علىّ؛ فكانت أمى مثالاً للحب والعطاء حيث كانت تقوم بادخار بعض الأموال التى كانت تعطيها لأى من أقاربنا الذين يأتون لزيارتنا من مسافات بعيدة. فكانت هى والدتى ـ التى من خلال رعايتها للفقراء والمحرومين ـ المساعد الأساسى لى فى اكتشاف ميولى فى الاهتمام بعلم الاقتصاد والإصلاح الاجتماعى.

تعود جذور والدتى إلى أسرة من طبقة التجار متوسطى الحال الذين يقومون بالبيع والشراء من مدينة بورما. وكان والدها يمتلك أرضًا قام بتأجير جزء كبير منها، وكان يقضى وقتًا طويلاً فى قراءة وكتابة الموضوعات التاريخية وأكل الصحى من الطعام، الأمر الذى جعل منه شخصية محبوبة بالنسبة لأحفاده. ففى تلك الأيام الخوالى أتذكر والدتى وهى تلبس ساريًا زاهى اللون مطعم بشريط ذهبى حول حافته، وكان شعرها الداكن ممشط دائمًا إلى الخلف فى شكل كومة سميكة مع فرق من الأمام نحو اليمين. كنت أحبها كثيرًا، وكنت عادة ما أقوم بشدها من السارى لجذب انتباهها. وأتذكر ـ علاوة على ما سبق ـ ما كانت تحكيه لى من قصص وما تنشده من أغنيات، مثل تراجيديا كربلاء. ففى شهر محرم من كل عام، وفى أثناء احتفال المسلمين بذكرى كربلاء أتذكر سؤالى المعتاد لوالدتى: «لماذا تكون السماء حمراء على هذا الجانب من المنزل

وزرقاء على جانبه الآخر؟» ، فتجيبنى والدتى : « إن السماء الزرقاء للإمام الحسن ، أما الحمراء فهى للإمام الحسين» .

«ومن هو الحسن ومن هو الحسين يا أمى؟» .

« إنهما أحفاد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرة عينه» .

وعندما كانت والدتى تنتهى من قصة قتلهما ، كانت تشير بإصبعها إلى الغسق وتشرح كيف أن الزرقة على أحد أركان المنزل تمثل السم الذى قتل به الإمام الحسن ، أما الحمرة على الركن الآخر فتمثل دم الإمام الحسين . وكان هذا الوصف التراچيدى بالنسبة لى كطفل لا يعدو كونه تعبيراً عن « بحر من الحزن» .

وطغت أمى بشخصيتها علىّ خلال سنواتى الأولى ؛ فأتذكر تجمهرنا حولها وهى تصنع الكعك ، وأتذكر تهافتى لتذوقه بمجرد أن ينضج فلا أتيح لها الفرصة كى تقوم بتبريده ؛ فقد كنت معروفًا بين أفراد أسرتى بكونى الذواقة لوالدتى . وقد عملت والدتى أيضًا ببيع المجوهرات فى المحل الخاص بنا ، كما كانت تضيف اللمسة النهائية للأقراط والقلادات ، وكنت أقوم بمراقبة يدها النحيلة وهى تقوم بإضافة الزخارف الجميلة إلى المجوهرات . فكانت النقود التى تتحصل عليها من عملها هذا هى ما تقوم بإعطائه للمحتاجين من الأقارب والأصدقاء والجيران الذين يقصدونها طلبًا للعون .

وكان لأمى أربعة عشر من الأولاد ؛ توفى خمسة منهم وهم صغار . شقيقتى «ممتاز» كانت تكبرنى بثمانى سنوات ، وتزوجت ولم تبلغ الرشد بعد ، وعادة ما كنا نقوم بزيارتها فى منزلها الجديد على أطراف المدينة ، حيث كانت تقدم لنا الأطباق اللذيذة . أما شقيقى «سلام» فكان يكبرنى بثلاث سنوات وهو أفضل أصدقائى ؛ فكنا نلعب لعبة الحرب معًا مقلدين أصوات آلات الحرب اليابانية . وعندما تكون الرياح مناسبة نقوم بصنع طائرات ورقية ملونة مستخدمين أوراقًا هندسية الشكل وعيدان شجر البامبو . وذات مرة اشترى والدى بعض القذائف اليابانية المنتشرة فى السوق ، وقمنا أنا وأخى بمساعدة والدتنا فى تحويلها إلى أوان للنبات لوضعها على سطح المنزل وذلك بوضعها مرتكزة على طرفها المدبب وقاعدتها العريضة إلى أعلى .

التحقنا ـ أنا وسلام وجميع جيراننا من الصبية ممن هم فى مثل أعمارنا ـ بمدرسة «لامار بازار فرى» الابتدائية. وجدير بالذكر أن المدارس البنجالية تهتم بغرس القيم الفاضلة فى تلاميذها؛ فهى لا تهدف فقط إلى تقديم العلم، وإنما تمتد أهدافها إلى غرس روح العزة الوطنية، وتقديس القيم الروحية، والاهتمام بالفنون من موسيقى وشعر، واحترام السلطة والانتظام. ويشتمل كل فصل فى المدرسة على أربعين تلميذًا، وهناك فصل بين التعليم الابتدائى والثانوى. وكنا جميعنا ـ تلاميذ ومدرسون ـ نتحدث اللهجة الشيتاجونية. وكان الطلاب المتميزون يحصلون على منح دراسية، كما كانوا يدخلون فى مسابقات علمية على مستوى الدولة، ولكن وسرعان ما ترك غالبية زملائى فى المدرسة مقاعد الدراسة.

كنت أنا وأخى سلام نلتهم كل ما يقع فى أيدينا من كتب أو مجلات، وكانت روايات المفتش «ثريلرز» هى المفضلة بالنسبة لى، وتأثرًا بهذه الرويات قمت ذات مرة بتأليف رواية بوليسية كاملة وعمرى اثنتا عشرة سنة. ولم يكن من السهل بالنسبة لى ولأخى أن نشبع ظمأنا للقراءة، فلجأنا إلى الارتجال والشراء والاستعارة، بل والسرقة أحيانًا. فعلى سبيل المثال كانت مجلة الأطفال المفضلة لنا ـ مجلة «شوكتارا» ـ تقوم بعمل استفتاء سنوى، يحصل بموجبه الفائزون على اشتراك مجانى فى المجلة مع طباعة أسمائهم عليها. وقمت باختيار أحد الفائزين بطريقة عشوائية، وراسلت محرر المجلة قائلاً:

سيدى العزيز،

أنا أدعى . . . . . ، أحد الفائزين فى استفتاء مجلتكم، وقد تغير مكان إقامتى، فأرجو منكم إرسال أعداد المجلة وفقًا للاشتراك المجانى على شارع بوكسيرهات رقم . . . . .

ولم أقم بإعطائه الرقم الصحيح لمنزلنا، وإنما رقم أحد جيراننا لئلا ترى أسرتى المجلات المرسلة. وكنا ـ أنا وسلام ـ نتابع أعدادنا المجانية بحرص، وقد نجحت الخطة كما فى الأحلام.

وكنا نقضى بعض الوقت يوميًا فى غرفة الانتظار الملحقة بعيادة طبيب الأسرة؛ دكتور بانيك؛ وذلك لقراءة مجموعة من الصحف المتنوعة المشترك بها. وقد أسهمت

قراءاتى الحرة فى حسن تأسيسى بمرور الوقت، فكنت دائمًا أول فصلى على مدار تعليمى الابتدائى والثانوى.

وفى عام ١٩٤٧م، عندما كنت فى السابعة من عمرى، وصلت «حركة پاكستان» إلى ذروتها؛ فالمناطق الهندية ذات الأغلبية المسلمة كانت تحارب للحصول على استقلالها كدولة مسلمة. وبأغلبيتها المسلمة أيقنا انضمام شيتاجونج إلى پاكستان، ولكننا لم نكن متأكدين ما إذا كانت بقية المناطق التى يسكنها البنجال المسلمون ستنضم هى الأخرى إلى پاكستان أم لا، وما هى تحديدًا الحدود السياسية الجديدة التى سيتم ترسيمها. وكانت هناك مناقشات مطولة بين الأصدقاء والمعارف فى طريق بوكسيرهات عن مستقبل پاكستان المستقلة، وقد أدركنا جميعًا أن پاكستان ستكون دولة ذات شأن وذلك بنصفيها الشرقى والغربى اللذين يبعدان عن بعضهما بأكثر من ألف ميل من الأراضى الهندية.

وكان لدى والدى ـ المسلم الورع ـ الكثير من الأصدقاء والزملاء الهندوس الذين جاءوا إلى منزلنا؛ ورغم حداثة سنى شعرت بجو من عدم الثقة بين الطائفتين الدينيتين، فقد سمعت من المذياع عن بعض أعمال العنف بين المسلمين والهندوس، ولكن ـ لحسن الحظ ـ كانت مثل هذه الأحداث محدودة فى شيتاجونج.

وقد أثرت أجواء الحرب على أسرتى وحياتها اليومية؛ فقد كان والداى يميلان بشدة إلى الاستقلال عن باقى الهند. وامتد الأمر إلى أخى الأصغر «إبراهيم» ـ وكان قد بدأ لتوه فى الكلام ـ فكان يقول على السكر الأبيض الذى يحبه بشدة «جناح شوجر»، وأما «السكر البنى» الذى كان لا يستسيغه، فقد أطلق عليه مسمى «غاندى شوجر».

«محمد على جناح» كان هو قائد حركة الاستقلال الپاكستانية، وكان «غاندى» بالطبع يرغب فى المحافظة على الهند موحدة. وكانت والدتى تقص علينا حدوتة ما قبل النوم متضمنة قصصًا لـ«جناح، وغاندى، واللورد لويس ماونتباتن». أما أخى «سلام» وكان عمره آنذاك عشر سنوات، فقد كان يحسد الصبية الكبار من جيراننا لحملهم الأعلام الخضراء التى يتوسطها رمز الهلال والنجمة، وهم يهتفون فى الشوارع: تحيا پاكستان... تحيا پاكستان.. (پاكستان زنداباد).

وفى مساء ليلة الرابع عشر من شهر أغسطس لعام ١٩٤٧م، حصلت شبه القارة الهندية ـ التى كانت تحت الحكم البريطانى لقرنين من الزمان ـ على استقلالها. وأتذكر هذا الحدث كما لو كان البارحة، فكأنى أرى أمامى المدينة وقد ازدانت بالأعلام والأشرطة الخضراء والبيضاء، كما أستمع إلى صيحات الجنود هاتفة «پاكستان زنداباد» بين الفينة والأخرى، وقد اكتظت الشوارع بالناس حتى منتصف الليل، كما قمنا بإطلاق الألعاب النارية من سطح منزلنا ـ تلك الألعاب التى كنت أرى خيالات جيراننا وهم يتابعون تفجيرها مالئة ظلمة السماء. كانت الفرحة والإثارة تعم أجواء المدينة.

وباقتراب منتصف الليل اقتادنا والدى إلى شارع بوكسيرهات، وعلى الرغم من أنه لم يكن ناشطًا سياسيًا، فقد انضم إلى جماعة « الحرس الوطنى المسلمة » ـ جماعة جناح ـ كدليل على وحدة الصف، وقد تحلى بفخر فى هذه الليلة بالزى الكامل الذى تلبسه هذه الجماعة وصولاً إلى القبعة. ورافقنا هذه الليلة أخى « إبراهيم » ذو العامين وكذلك أخى الرضيع « تونو». ومع منتصف الليل، انقطعت الكهرباء وعمت الظلمة المدينة بأكملها، ودام الانقطاع للحظات ثم جاءت الكهرباء من جديد معلنة بداية حقبة جديدة لبلد جديد، وشعار « پاكستان زنداباد » يرج أنحاء المدينة ويترامى إلى الآذان بشكل مستمر. كنت حينها فى السابعة؛ ولكنى شعرت لأول مرة بعزة النصر ـ شعرتها تسرى فى شرايينى، وأحسست بالنشوة من شدة الفرحة.

* * *

بعد أن كنا خمسًا من الإخوة والأخوات ـ ممتاز، وسلام، وأنا، وإبراهيم، وتونو ـ رزقت والدتى بأربعة صبية آخرين وهم: أيوب، وعزام، وجهانجير، وموينو. ولكن عندما بلغت التاسعة، أصبحت والدتى الحبيبة متوترة وعصبية دون سبب واضح، وأصبح سلوكها غير طبيعى بشكل ملحوظ. وأصبحت فى لحظات صفائها تتحدث إلى نفسها بكلام غير مفهوم ينتهى عادة بقضاء ساعات فى الصلاة، أو فى قراءة بضع صفحات من أى كتاب، أو فى تكرار إلقاء الشعر دون توقف. أما فى لحظاتها المضطربة فتقوم بتوجيه الإهانات للناس بصوت مرتفع مستخدمة ألفاظًا نابية. وفى بعض الأحيان تتعسف فى قذف أحد الجيران أو الأصدقاء أو أحد أفراد الأسرة، ولكن فى أحيان أخرى توجه التوبيخ إلى أحد السياسيين أو أحد الرموز التى

ماتت منذ زمن، أو قد تختلق أعداء وهميين وتبدأ دون سابق إنذار باستخدام العنف ضدهم. أما فى الليل فعادة ما كانت تستيقظ من نومها على صراخ وألم جسدى، وعندها أقوم بمساعدة والدى فى كبحها أو محاولة حماية أخى الأصغر من لكماتها. وعادة ما كانت والدتى تعود لطبيعتها بعد انتهاء الأزمة فتصبح لطيفة و ناعمة كما نعرفها ، تفعل ما بوسعها لتغدق علينا من حبها ولترعى إخواننا الصغار. ولكننا كنا ندرك أن هذا التحول يكون وقتيّا، حيث كانت حالتها تسوء، فاقدة معها متابعتها السابقة لنا فى مدرستنا ودراستنا.

حاول والدى الكثير معها لعلاجها، فدفع المال فى سبيل إجراء أكثر الفحوصات الطبية تقدمًا فى بلدنا، ولكن مرض والدتى العقلى كان مرضًا وراثيّا؛ حيث أصيبت به والدتها وأختاها الاثنتان، ولم يستطع أى من الأطباء تشخيص حالتها. واندفع والدى يائسًا لتجريب أنواع مختلفة من العلاجات غير التقليدية؛ مثل التخدير والسحر والتنويم المغناطيسى، ولكن أيّا منها لم يكن ناجحًا، حيث لم تستجب والدتى لأى من هذه العلاجات.

أما بالنسبة لنا نحن كأطفال، فقد استرعت طرق العلاج هذه اهتمامنا؛ فبعد مشاهدتنا للطبيب النفسى وهو يجرى الجلسات النفسية لوالدتى كنا نقوم بدورنا بتجريب ما يفعله على بعضنا البعض. كما اعتدنا على التعامل مع حالتها بنوع من الفكاهة؛ فكنا مثلاً نسأل بعضنا: « ما توقعاتك لحالة الجو » فى إشارة إلى حالة والدتى المزاجية فى الساعات القليلة التالية. ولتجنب توجيه اللوم أو التوبيخ لنا ، قمنا بإعطاء كل فرد من الأسرة رقمًا كوديا؛ مثل رقم ٢ . . ورقم ٤ . . .إلخ ، كما قام أخى «إبراهيم » بكتابة قصة هزلية رمز فيها إلى منزلنا بـ «محطة المذياع » ، ورمز إلى والدتى بـ «على الهواء» وعبر فيها لحظة بلحظة عن حالتها المزاجية بلغات وطرق مختلفة .

وكان والدى هو الشخص الوحيد الذى ظهر ثابتًا طوال هذه الفترة الكئيبة، فقد عود نفسه على الوضع الجديد لحالة والدتى مظهرًا قدرًا من التعاطف والصبر والرعاية لها بشتى الطرق الممكنة وفى جميع الحالات طوال فترة مرضها التى دامت ثلاثة وثلاثين عامًا. وقد حاول والدى التصرف كأن شيئًا لم يتغير وأنها بالنسبة له هى «صوفيا » نفسها التى تزوجها عام ١٩٣٠ م عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره. كان والدى

شديد الإخلاص لها وحسن العشرة طيلة اثنين وخمسين عامًا ، هى فترة زواجهما حتى توفيت سنة ١٩٨٢م.

* * *

على الرغم من أن والدى لم يبخل فى الإنفاق على تعليمنا وأسفارنا، إلا أنه فى ذات الوقت اكتفى بتملك منزل غاية فى التواضع والبساطة ، كما كان يعطينا القليل من المال كمصروف لليد. ولكنى تمكنت من الحصول فى دراستى الثانوية على منحة شهرية نتيجة لفوزى فى «امتحان التميز» الذى كان يعقد على مستوى مقاطعة شيتاجونج؛ الأمر الذى مثل زيادة فى مصروفى الشهرى، وإن لم يزل بشكل غير كاف. وكنت ألجأ إلى تغطية هذا العجز من قطع النقد الصغيرة المبعثرة فى درج والدى، دون أن يكتشف والدى ذلك.

وبالإضافة إلى اهتمامنا أنا وأخى سلام بالكتب والمجلات، فقد تكشفت لنا نقاط ضعف جديدة تمثلت فى مشاهدة الأفلام وتناول الطعام خارج المنزل. ولم نكن نشتهى المكلف من الطعام، فوجبتنا المفضلة كانت شريحة من البطاطس المحشوة بالبصل المحمر والمرشوشة بالخل مع فنجان من الشاى بالياسمين، كنا نتناولها فى حانة بسيطة تقع على ناصية منزلنا، ولم يكن والدى على علم بهذه النزهات.

كانت آلة التصوير الأولى التى اشتريناها بسيطة للغاية، وكنا نصطحبها معنا أينما ذهبنا، وقمنا كما يقوم الخبراء بالبحث والتخطيط للموضوعات التى كنا نقوم بتصويرها؛ فاهتممنا بتكوين مجموعة من الصور للوجوه، وأخرى للقطات من الشارع، والمنازل، وأخيرًا للحياة الهادئة. وكان لدينا شريك يساعدنا ويشجعنا على المضى قدمًا فى عالم التصوير؛ وهو المالك لأستوديو « البيت الغامض» - وهو أحد محلات التصوير التى كانت تقع بالقرب من منزلنا؛ فقد كان يسمح لنا باستخدام الغرفة المظلمة بمحله لتحميض وطبع أفلامنا غير الملونة، والتى كنا نقوم فيما بعد بتلوينها وإدخال بعض المؤثرات البصرية عليها. وهكذا أصبحت لدى هواية الرسم والتلوين والتى قررت تعلمها على يد أحد الرسامين المحترفين؛ والذى كنت أناديه بـ« الأستاذ » أو «جورو».

وفى البيت قمت بترتيب مكان حامل الألواح وأقمشة الرسم والألوان، بشكل يمكننى من إخفائهم عن أنظار والدى؛ حيث إن والدى كمسلم متزمت لم يكن يقبل أو يؤمن بإمكانية رسم النفس البشرية، وإن قام بعض أعمامى وعماتى من محبى الفن بمساعدتى وتشجيعى على تنمية هوايتى. ونما لدى أنا وسلام عن غير قصد نتيجة لهذه الهواية ميلٌ للصور وللتصميم، وبدأنا فى جمع الطوابع، وقمنا بإقناع صاحب أحد المحلات المجاورة بعرض مجموعتنا فى الوجهة الأمامية للمحل. كما اعتدنا على الذهاب إلى دور العرض برفقة اثنين من أعمامنا لمشاهدة الأفلام الهندية والأمريكية، وأحببنا حفظ وغناء الأغنيات العاطفية المشهورة آنذاك.

وكانت المدرسة الثانوية التى التحقت بها فى شيتاجونج أكثر تفتحًا وتنوعًا من مدرستى الابتدائية؛ فمعظم زملائى بالفصل كانوا أبناء مسئولين حكوميين محوَّلين من مقاطعات مختلفة، حيث كانت مدرستى الثانوية ـ مدرسة كوليجيت ـ تقدم أفضل خدمة تعليمية بالدولة. ولكن أكثر ما جذبنى شخصيًا بها هو برنامج الكشافة للأولاد؛ حيث كنا نقوم بالتعاون مع فرق الكشافة بالمدارس الأخرى، فنقوم باللعب والحفر والمطاردات فى جنبات القرى، بالإضافة إلى القيام بالأعمال الفنية والعروض المسرحية والمناقشات والمسابقات. وكان هناك ما يسمى بأسبوع الدخل، نقوم فيه بزيادة دخلنا من خلال بيع بعض المنتجات مترجلين، أو عن طريق تلميع الأحذية والعمل بالمقاهى. فبجانب المتعة التى وجدناها من خلال انضمامنا لبرنامج الكشافة، فقد تعلمنا أن نعمل سويًا بانسجام، وتعلمنا تنمية الحس الداخلى بالمسئولية وكيفية احترام آدمية الآخرين.

وأتذكر على وجه الخصوص كيف قمنا برحلة بالقطار عبر الهند للاشتراك فى مهرجان كشافة پاكستان الأول عام ١٩٥٣م. وقد توقفنا خلال رحلتنا عدة مرات لزيارة بعض الأماكن التاريخية، وقضينا أغلب الوقت فى اللعب والغناء. وتوقفنا لزيارة «تاج محل» فى أكرا، وأتذكر حينها أنى لمحت وكيل المدرسة «كوازى سيراجول» وهو يمسح فى خفاء بعض العبرات المتساقطة من عينيه؛ فلم تكن هذه العبرات بسبب الأثر التاريخى، ولا بسبب الأعزاء من المشاهير المدفونين هناك، ولا بسبب كلمات الشعر الرقيقة المحفورة على جدرانه البيضاء الرخامية، وإنما كانت ـ كما

قال لى ـ بسبب قلقه على مصيرنا نحن وعلى الأمانة التاريخية التى نحملها؛ ورغم أنى كنت فى الثالثة عشرة حينها إلا أنى تأثرت بشدة بكلماته وبتفسيره المحمل بالعذوبة والرفق. وقد تمكنت من خلال تشجيعه من صقل ما أمارسه من أنشطة؛ فقد كنت دائمًا قيادى الشخصية بالفطرة؛ ولكن نتيجة لتأثير «كوازى» الأخلاقى فقد تعلمت كيف أسمو بأفكارى وكيف أتحكم فى عواطفى.

وسادت الفوضى فى الأشهر التى تلت حرب بنجلاديش للتحرير عام ١٩٧٣م، وفى هذا العام قمت ووالدى وأخى إبراهيم بزيارة الأستاذ « كوازى » ، فقدم لنا الشاى وناقشنا الأوضاع السياسية المحيطة بنا. وبعد هذه الواقعة بنحو شهر، تم قتل الأستاذ «كوازى» ـ الذى كان حينها شيخًا مسنًّا ـ بوحشية خلال نومه على يد خادمه الذى سرق منه مبلغًا متواضعًا من النقود، ولم يستطع البوليس تحديد الجانى. وقد انهرت تمامًا بسبب هذه الحادثة والتى أدركت بعدها ـ بأثر رجعى ـ أن عبرات الأستاذ « كوازى» المتساقطة عند «تاج محل» مرجعها تنبؤه بما سيلاقيه من معاناة إلى جانب المعاناة التى تنتظر الشعب البنجالى نفسه.

* * *